مجلة "مدارات في اللّغة والأدب" الصادرة عن مركز مدارات للدراسات والأبحاث، تبسة-الجزائر.

المجلد01.العـدد: 03. السنة: 2019 ص 110– 130
ISSN 2661-765x

العوالم الممكنة: مدخل إلى تأويل النص

Possible worlds : an introduction to the text interpretation

ط/د. مولاي مروان العلوي *

جامعة شعيب الدكالي، الجديدة، المغرب.

البريد الالكتروني: Mly.marouane.alaoui@gmail.com

ملخص البحث

تتأسس هذه الورقة على تساؤل جوهري يتمثل في: ما هي الآليات التي بفضلها يبني القارئ العوالم الممكنة التي توجه فعل القراءة، وتنقل النص من الوجود بالقوة إلى الوجود بالفعل؟ وهل تمثل العوالم الممكنة استراتيجية تأويلية كافية لبلورة كون دلالي منسجم للنص؟ وهل يتيح بناء العوالم الممكنة إعادة تنظيم عناصر النص بغية الولوج إلى كنهه؟ وكيف يستثمر القارئ معرفته لتأويل النص؟

ينبني هذا البحث على الإفادة التي يمنحها حقل الدراسة النقدية للخطاب لإغناء النظريات التأويلية. وننطلق في ذلك من افتراض مركزي مفاده أن المتلقي "النموذجي" خلال فعل القراءة يقوم بمجموعة من الاستدلالات بناء على آليات يستند إليها في عملية التأويل تنقله من المتاهة التأويلية إلى سيرورة تأويلية محددة. وينطلق في ذلك من بناء عوالم ممكنة تتسم بالانسجام التأويلي من جهة، وقابلة للتحول والتغير خلال تنامي فعل القراءة من جهة أخرى، يستثمر فيها نماذجه الذهنية ومعرفته الشخصية ، والمعرفة المشتركة..

من أجل فحص هذه الإشكالية، ومختلف الأسئلة الجزئية المتفرعة عنها، ننطلق في المبحث الأول من رصد مظاهر التآلف ومكامن الاختلاف بين التأويل ودراسة الخطاب. وننتقل في مبحث ثان إلى تحديد خصائص القارئ النموذجي

* المؤلف المرسل: ط/د. مولاي مروان العلوي Mly.marouane.alaoui@gmail.com

كما حددها امبرتو ايكو. ونبسط في مبحث ثالث آليات التأويل المتمثلة في الكفاية الموسوعية والعوالم الممكنة والنماذج الذهنية. ثم نذيل الورقة بتركيب مجمل لما تطرقنا إليه.

الكلمات المفتاحية: التأويل، دراسة الخطاب، العوالم الممكنة، النماذج الذهنية، القارئ النموذجي.

Abstract :

This paper is based on a fundamental problematic: What are the mechanisms by which the reader builds the possible worlds that direct the act of? Do the possible worlds represent a sufficient interpretive strategy? Does building the possible worlds allow to gain access to text? How does the reader invest his knowledge to interpret the text?

This research is based on the highlights given by the Critical Discourse Study field to enrich hermeunitics theories. We proceed from a central assumption that the "typical" reader in the act of reading constructs a set of inferences based on mechanisms to move from the an interpretive maze to a specific interpretative process. He begins with the construction of possible worlds during the act of reading. The reader invests his mental models, personal knowledge and knowledge ...

In order to examine this problemematic, we proceed first to determine the differences between hermeunitics and discourse study. In a second section, we move on to defining the characteristics of the typical reader as defined by U.Eco. In the third section we present the mechanisms of interpretation :encyclopedic competence, possible worlds and mental models. Finaly, we conclude with the most important conclusions.

Keywords: hermeunitics, discourse study, possible worlds, mental models, typical reader.

أولا: بين التأويل ودراسة الخطاب

يعد التأويل، أو بعبارة أدق، ممارسة التأويل تحديا حقيقيا في ظل نسبية الحقيقة بمعناها العام، وانفتاح النص والخطاب على دلالات ممكنة ومتعددة تنطلق من التجليات التي يتيحها النص لينفلت من كل القيود. فيموت بذلك المؤلف ليمنح الفرصة للمتلقي، بجميع أصنافه ومستوياته، لإعادة إحياء النص مستعينا في ذلك بمجموعة من الوسائل النظرية والأدوات الإجرائية التي تمنحها النظريات التأويلية.

إن التأويل، بهذا المعنى، وبتعبير شلايماخر، يعد "فن الفهم، أو هو البحث في الشروط التي تجعل الفهم ممكنا". فتأويل الخطاب، إذن، يمر بالضرورة من عملية الفهم المرتبطة أساسا بالمعنى الأولي الظاهر والجلي، أي المعنى الحرفي، ليتجاوزه بالبحث عن المعاني الضمنية والبنيات العميقة للنص. والمتأوِّل، إذ ذاك، ينتقل من معطيات جلية ومتاحة ظاهريا وماديا إلى نتائج واستنتاجات غير متاحة، قد تختلف باختلاف المتأوِّل ومنهجه المعتمد في عملية التأويل. ولهذا، قد "انتقل مؤِّولو النص من البحث عن الحقيقة وعن المعنى الثابت الوحيد إلى البحث عن الممكن والمحتمل والمعاني المتعددة" ، فـ"ليس من معنى حقيقي لنص ما" . لذا، انطلاقا من التجليات النصية، يمكن أن نصل إلى سيرورات تأويلية وعوالم دلالية متعددة، تختلف باختلاف القارئ وتجربته وخلفياته (المعرفية، والاجتماعية...). ورغم تعدد التأويلات الممكنة، واختلاف الدلالات الناتجة عن ممارسة التأويل، فإن المدارس التأويلية وضعت حدودا للتأويل وضوابط له، فـ"ليس من المعقول أن يُترك النص لعنف القارئ المزهو بقدرته والمسكون بنزواته والمهووس بغرائزه ولذاته ."

وإذا كانت التأويلية أو الهرمنوطيقا في بداياتها مرتبطة بتأويل النصوص الدينية فحسب، من خلال البحث في مظاهر الوحي والإعجاز والخوارق، فقد انعتقت من ذلك لتجعل النص اللغوي وغير اللغوي موضوعا للدراسة، ومجالا للتحليل، عبر استدعاء مفاهيم متعددة من قبيل الفهم

والتفسير والنص والقارئ والمقصدية والسياق والعوالم الدلالية والسيرورة التأويلية والعوالم الممكنة..
من هذا المنطلق، قد أفادت النظريات التأويلية من حقول معرفية أخرى، وجعلت الباب مشرعا أمام المفاهيم والوسائل النظرية والأدوات الإجرائية ليتم اغترافها من حقولها الأم إلى حقل التأويل لتُدمج ضمن نسق الممارسة التأويلية.

ويؤكد بول ريكور P. Ricoeur على أن التأويل هو معرفة المعنى الموضوعي للنص الذي يريده المؤلف، وما على القارئ إلا أن يلتقط شفرات النص، وبالتالي تلتقي ذاتية المؤلف مع ذاتية القارئ من خلال التقاء خطاب النص بخطاب التأويل. فعندما يقوم القارئ بفعل القراءة، فذلك يتضمن بالضرورة تنشيط أطر الفهم وآليات التفسير، ومن ثم التأويل، من خلال بناء سلسلة من المرجعيات الممكنة التي قد تتطابق مع الإمكانات التي يتيحها النص؛ أي بناء عالم افتراضي يمثل محصلة الاستنباطات التي تسمح بها تجليات النص؛ وبمعنى آخر يقوم القارئ المفترض أو النموذجي، حسب تعبير امبرتو إيكوU. ECO، ببناء عوالم ممكنة توجه السلوك المقترح لمكونات النص.
ويعد حقل الدراسة النقدية للخطاب حقلا معرفيا خصبا يمكن الإفادة منه لإغناء النظريات التأويلية، وذلك بوصفه نمطا من بحوث الخطاب التحليلية التي تدرس، بصفة عامة، المعاني المضمنة في الخطاب، وتركز، بصفة خاصة، على طرائق تنفيذ سوء توظيف السلطة power abuse واستمرارها ومقاومتها، فضلا عن الهيمنة الاجتماعية وعدم المساواة بواسطة النص والكلام في السياق الاجتماعي والسياسي، تتوسل بمجموعة من المفاهيم الإجرائية التي تمكنها من استجلاء أبعاد سوء توظيف السلطة، والعلاقات المعقدة الكائنة بين بنى الخطاب والبنية الاجتماعية. ولا تتبنى مقاربة وحيدة للخطاب، بقدر ما تعتمد على مجموعة من المناهج التحليلية والنقدية في دراسة بنى الخطاب، من قبيل: التحليل اللغوي، التحليل التداولي، التحليل البلاغي، الأسلوبية، تحليل أنماط

الخطاب المختلفة (القصة، الأخبار، المناقشات البرلمانية، الإعلانات..)، التحليل السيميائي للأصوات والصور ...

وتختلف دراسة الخطاب discourse studie عن تأويل الخطاب interpretation.فإذا كانت دراسة الخطاب تبحث في الكيفية التي بها يمكن أن ندرس الظواهر الخطابية بالاستعانة بمناهج متعددة ومتكاملة، فتأويل الخطاب لا يهدف إلى اكتشاف هذه الظواهر، بقدر ما يبحث عن المعنى، وكيفية استجلائه، وطرق الانتقال من المعنى الظاهر إلى المعنى الضمني أو المعاني والدلالات غير الصريحة في الخطاب، والتي تتطلب إعمال ميكانيزمات معينة انطلاقا من التجليات النصية .

ويعتبر فان ديك أن كل دراسة تصريحية explicitللخطاب يجب أن تتأسس على عنصر تنظيمي أساسي يتمثل في البنيات الصورية للخطاب، ومن بينها المعنى، أي تلك التجليات الظاهرية والمادية، اللغوية وغير اللغوية، والتي تعتبر المعبر المبدئي للولوج إلى البنى العميقة في النص والخطاب. ويمكن أن نصف الدراسات المعاصرة للخطاب التي تتجه في اتجاهات مختلفة في البحث، من قبيل النظريات اللسانية، والعرفانية، والاجتماعية، والثقافية، والسياسية، بكونها وصفية واستكشافية وليست نظريات معيارية؛ إذ لا تهدف إلى توجيه القرّاء إلى الطريقة التي بها يجب فهم نص ما، بل تهدف إلى دراسة كيفية فهم القراء المتعددين نصا ما في سياقات مختلفة.

ويشترك كلا الحقلين في اهتمامهما بالدور المركزي الذي يضطلع به القارئ في فهم الخطاب وتأويله؛ فبول ريكو، من منظور التأويلية، يعتبر أن الخطاب عندما يتحول من الكلام إلى الكتابة يصبح مستقلا عن قصد الكاتب، وبالتالي، يضحي عالم النص مستقلا عن عالم الكاتب بفضل المباعدة بمفهومها المؤسس لظاهرة النص بوصفه كتابة، حيث تتباعد الدلالة النصية عن الدلالة الذهنية،

ويستقل النص المكتوب عن سياقاته المتعددة (التاريخية، والسياسية، والاجتماعية، والنفسية) لينفتح على سلسلة غير محدودة من القراءات، ومن ثم سلسلة مفتوحة من التأويلات. ويرى امبرتو ايكو أن مسالك المعنى المتعددة واحتمالاته التي يتيحها النص تستدعي تدخل قارئٍ نموذجي معاضد lecteur modèle coopératif، يستنطقه ويسهم في تأويله، فالنص "آلة كسولة تتطلب من القارئ بذل جهد تعاضدي جبار لكي يملأ فراغات ما لم يُقل وما قيل التي لبثت بيضاء" . وهذا ما يمنح للمتلقي بعدا مركزيا في تأويل النص من خلال قيامه بفعل القراءة؛ إذ بمجرّد أن ينسى القارئ قصد الكاتب، يبدأ في فهم النّصّ على ضوء تجاربه الخاصّة كذات متلقّية.

أما الدراسة النقدية للخطاب، فتعتبر أن الخطاب، بغض النظر عن مجاله، ينتج في سياق معين ولمتلق معين. لذلك، تدرس الكيفية التي بها تؤثر النصوص والخطابات على المستمَع والقارئ، وتبحث في الوسائل النصية والخطابية التي توجه القارئ والمستمَع إلى إدراك العالم من خلال النص والخطاب بكيفية معنية. من أجل هذا، تتوسل الدراسة النقدية للخطاب بمفاهيم مستقاة من النظرية العرفانية cognitivisme التي تنظر إلى كيفية إدراك الإنسان للعالم، وكيفية تمثله بناء على معرفته بالعالم، وتجربته الشخصية، ونماذجه الذهنية التي يؤسسها انطلاقا من العالم المسقط في ذهنه، والتي يسقطها على النص أو الخطاب خلال عملية إدراكه وتأويله. وهي مفاهيم يمكن أن تُستثمر في نسق الممارسة التأويلية.

من هذا المنطلق، يظهر أن القارئ خلال قيامه بفعل القراءة، يقوم بالضرورة بتنشيط أطر الفهم وآليات التفسير، ومن ثم التأويل، من خلال بناء سلسلة من المرجعيات الممكنة التي قد تتطابق مع الإمكانات التي يتيحها النص؛ أي بناء عالم افتراضي يمثل محصلة الاستنباطات التي تسمح بها تجليات النص؛ وبمعنى آخر، يقوم القارئ المفترض أو النموذجي، حسب تعبير امبرتو

إيكو، ببناء عوالم ممكنة توجه السلوك المقترح لمكونات النص الذي يضع "مضامينه في وضع الإمكان، بانتظار أن يفعّلها عمل القارئ التعاضدي تفعيلا نهائيا. "

من أجل ذلك، سنتطرق، فيما يلي من المباحث، إلى مجموعة من المفاهيم التي وظفها ايكو لتأويل النصوص من قبيل القارئ النموذجي والعوالم الممكنة، إضافة إلى مفهوم النماذج الذهنية المستقى من حقل الدراسة النقدية للخطاب.

ثانيا: القارئ النموذجي

لما اعتبر امبرتو ايكو أن فعل التأويل فعل تداولي في إطار اهتمامه بعلم التداول النصي، فقد انطلق في ذلك من أن "تأويل أي نص، إنما يعزى، وبشكل أساسي إلى عوامل تداولية" ، وبذلك فهو لا يكتفي فقط بالنظريات التي تقتصر على التحليل المكونيcomponentielle ، أو على الدراسة المعجمية، أو على الدراسة الجملية، بل، فضلا عن ذلك، يستند إلى النظريات التي تُدمج مستويات خارج جملية، من قبيل النص والسياق والمتلقي. فسعى إلى بناء نظرية نصية تكون جُماعا لقواعد تداولية تعين النظرية على تحديد العوامل التي من شأنها أن تُسَوِّغ للمتلقي المساهمة في تفعيل النص actualisation؛ ذلك أن فعل التأويل مرتبط أساسا بالممارسة التي ينهجها القارئ لتفعيل النص.

بناء على ذلك، تأسس تصور ايكو في التأويل على روافد معرفية متعددة ؛ إذ أعانته السيميائيات التأويلية البورسية على "إيضاح حيوية التأويل" ، واستلهم منها مفهوم المؤول interpretant، والذي يتمثل في "الصورة التي ترتسم في ذهن المرسل إليه لما يرسل إليه من دليل ما، والذي يعتبر هو نفسه مؤولا لدليل آخر وهكذا إلى نهاية السلسلة التأويلية" . فضلا عن ذلك، أفاد من مفهوم الدراسة اللسانية للخطاب عند فان ديك (Van Dick 1977 (الذي تجاوز

دراسة الجملة إلى دراسة النص والخطاب بناء على استدعاء مفاهيم مستقاة من التيار المعرفي والمنطق والدلالة الصورية المشروطة بالصدق، وأعطى بعدا مركزيا للسياق وللمتلقي، واعتبر أن الخطاب مكون من بعدين: بعد دلالي وبعد تدوالي . إضافة إلى ذلك، استثمر ايكو النظرية التواصلية عند جاكبسون الذي اهتم اهتماما بالغا بالجهاز الداخلي الذهني للمتكلمين، بدل الاهتمام فقط بسلوكهم اللفظي ، واعتبر ايكو أن النموذج التواصلي الذي أقره جاكبسون يحتاج إلى إعادة نظر، لا سيما ما يتعلق بالسنن الذي تُبنى على أساسه الرسالة، واعتبره نسقا معقدا من القواعد، والذي يحتاج، إضافة إلى الكفاية اللسانية، كفاية تداولية لتحليله .

وبما أن ايكو قد سعى إلى مباشرة النص من على سطح فعل القراءة، فقد اهتم بكيفية قراءة النص بعد صناعته، وركز على وصف حركات القراءة التي تقتضيها بنية النص . من أجل هذا، اعتبر ايكو أن القارئ يضطلع بدور مركزي إزاء النص بوصفه سلسلة الحيل التعبيرية التي ينبغي على المرسل إليه أن يفعّلها، من خلال إدراكه ووضعه في إطاره الزمني والمكاني وتحقيقه بما تيسر له من ثقافة .

لذلك حدد ايكو مجموعة من المواصفات التي ينبغي أن يتصف بها المتلقي ليصبح قارئا نموذجيا، يفعّل مضمون النص عبر سلسلة بالغة التعقيد من الحركات التعاضدية .coopérative ومن بينها: كفايته اللسانية، وكفايته التداولية (الظرفية)، وموسوعته الخاصة، واشتغاله الاستدلالي، وطاقته التأويلية. وهي الكفايات التي تجعله مساهما فعالا في آلية التعاضد التأويلي للنصوص، وتجعله، بتعبير ايكو، جديرا بتفعيله.

وقد ربط ايكو بين كفاية المؤلف في بناء النص وصنعه، وبين كفاية القارئ في تأويله؛ فالمؤلف عند كتابته للنص، يستحضر متلقيا مفترضا، في ضوئه ينهج استراتيجية نصية لا تحد من التأويلات الممكنة، بل يجهد في جعل كل تأويل منها يُذكر بالآخر، حتى تكون بينها علاقة من التمكين

المتبادل، لا الاستبعاد المطلق. لذلك، لا يعد افتراض المؤلف لقارئ نموذجي اعتقادا في وجوده فحسب، بل يؤدي هذا الافتراض إلى التأثير في بنيان النص، ويجعله يسلم بأن الكفايات التي يوظفها (المؤلف) هي نفسها التي يعتمدها القارئ في تفعيل النص. وبالتالي يوجد تكامل بين ما يقوم به المؤلف تكوينيا، أي النص، وما يقوم به القارئ تأويليا، مما يفرز الفعل التأويلي التعاضدي. بناء على ذلك، يفترض كل نص قارئا نموذجيا يفرز المؤلف في ضوئه استراتيجية نصية من جهة، ويتضمن مؤلفا نموذجيا يؤسس القارئ على أساسه لفرضية تأويلية من جهة أخرى، يستخلصها من معطيات الاستراتيجية النصية .

على هذا الأساس، يظهر جليا التأويل التعاضدي الذي يقصده ايكو؛ إن تأويل نص ما رهين بتدخل القارئ، بناء على توظيفه لكفاياته، للكشف عن عالم النص سواء ذلك الذي تخيله الكاتب أم ذلك الذي لم يتخيله، ذلك أن "كفاية المتلقي ليست بالضرورة مساوية بأهميتها لكفاية الباث" . من هنا، يضطلع القارئ بدور الكشف عن العوالم الممكنة التي يتيحها النص، انطلاقا من التجليات النصية، أي ما قاله النص من جهة، وبناء على الفراغات المبثوتة في النص؛ أي ما لم يقله النص من جهة ثانية. فالتعاضد النصي هو مجموع "المقاصد المتضمنة في النص وهي في حالة الإمكان" ، إذ لا يحمل النص دلالات جاهزة ونهائية، بل يحتاج إلى تفعيل من قبل القارئ، ويفتح إمكانية بناء عوالم ممكنة متعددة بناء على كفاياته وتوقعاته، ليكتسب بذلك، النص، دلالة جديدة عند كل فعل قراءة جديد.

ثالثا: آليات التأويل

إن النص من منظور علم التداول النصي لا يصبح كاملا إلا بعد أن يصبح بين يدي القارئ الذي يتكلف بتفعيله، أي ببناء دلالاته الممكنة دون وجود علاقة مباشرة مع المؤلف، الشيء الذي يجعل القارئ، في تعامله مع النص، يُفعِّل مجموعة من الكفايات الضرورية لتأويله، والتي لا يمكن أن تنفصل عن خلفيته المعرفية ونماذجه الذهنية وكفايته الموسوعية، بوصفه، أي القارئ، المرجع في عملية التأويل.

ولئن اعتبر ايكو بناء العوالم الممكنة مدخلا لفعل التأويل، فإن عملية بناء هذه العوالم تتطلب القيام بنشاط استدلالي يوجهه وتنبني عليه عملية التأويل. من هذا المنطلق، يفعل القارئ كفايته الموسوعية للتعامل مع المستويات الأولية في النص، بدءا من المستوى الخطي الذي "يرتبط بالعلاقات الكائنة بين مختلف العبارات المتجاورة داخل النص" ، ثم المستوى الدلالي الذي يعتمد فيه على "فهم الجمل وتأويلها على الجمل الأخرى المنتمية إلى نفس المتتالية بغض النظر عن موقعها الخطي في التركيب" ، ثم المستوى التداولي، حيث يقوم القارئ "باستدعاء معلومات خارج نصية للتعامل مع النص، من قبيل المقام التواصلي والمقصدية والمقبولية وعلاقة النص بنصوص أخرى" . وتستدعي هذه المستويات من المتلقي إعمال كفايته اللسانية من جهة، وكفايته التداولية من جهة أخرى للتعرف على المعنى الأولي، والذي يعد معبرا أساسيا لبناء سيرورة تأويلية تمكن من الولوج إلى كنه النص.

1. الكفاية الموسوعية

رأينا أن النص، من منظور ايكو، نتاج لمستويات عديدة؛ تركيبية ودلالية وتداولية، لا ينفصل تأوُّله المحتمل عن تكوين النص وصناعته بوصفه منطلقا لاحتمالات مختلفة، وتأويلات متعددة ترتبط بموسوعة القارئ بوصفها "مجمل الخزين المعرفي الذي يكون القارئ النموذجي (والعادي على حد

سواء) قد حصَّله، والذي يتصوره ايكو في حال الإمكان (لدى القارئ) كلما حثَّته النصوص أو الخطب على تأويلها وشرحها" . لذا، عند مباشرة القارئ لفعل القراءة، يقوم بتفعيل البنى الخطابية، إذ يربط بين التجلي الخطي للنص بنسق القواعد اللغوية للغة التي كتب بها النص من جهة، ويربطها أيضا بالكفاية الموسوعية التي تحيل عليها هذه اللغة من جهة أخرى.

وترتبط الكفاية الموسوعية بمستويين أساسين؛ إذ تنطلق، أولا، من تأويل القارئ للكلمات، أعجوما إثر أعجومléxeme ، ليتّبع عمليات الاندغام amalgameالضرورية، والتي تستدعي تفعيل العلاقات السياقية الداخلية بين هذه المدلولات في النص. وفي هذا المستوى الأولي، يلجأ القارئ إلى معجم ذهني، عبارة عن قاموس أساس، يمكنه من التعرف على السمات الدلالية الأولية التي تنطوي عليها الكلمات والعبارات المقصودة. ويمكن أن نطلق عليها مسلمات دلالية صغرى، قد تتأكد وقد تتغير إثر عمليات الاندغامات المؤقتة خلال تنامي فعل القراءة، حيث يُفَعِّل القارئ سلسلة من العمليات الاستدلالية، منها العمليات الاسترجاعية rétroactives التي تربط ملفوظين أو عبارتين تفرق بينهما مسافة صغيرة أو بعيدة، والعمليات الاستشرافية proactives التي تعين في إنتاج فرضيات قبلية لما سيلي من الأحداث بناء على المعطيات التي خزنها القارئ في ذهنه أثناء تنامي فعل القراءة. هذا ما يجر القارئ إلى تفعيل سمات دون أخرى خلال بنائه لعالم الخطاب ، ويجعله "يعلق قراراته مكتفيا بتعريف هذه الخاصيات التركيبية المرتبطة بالأعجومات المعتبرة كذلك، والتي تسمح بأول عملية إدغام . "

أما في المستوى الثاني من توظيف الكفاية الموسوعية، فيتم تفعيل الكفاية التناصية التي تشمل الموسوعة القصوى التي تتحصل لدى القارئ ، حيث تضطلع الأطر frames بدور أساسي في ربط تأويل أعجومة ما أو عبارة ما بالعودة إلى الاستخدامات التي وظفت فيها في نصوص أخرى

سابقة. من أجل ذلك، تعتبر الأطر بنية من المعطيات الجاهزة التي تفيد في تمثيل حالة نموذجية معمّمة، تتضمن عددا من المعلومات، بعضها يتعلق بما يمكن للمرء أن يتوقع حدوثه لاحقا، أما الأخرى، فتختص بما ينبغي عمله في حال لم يصدر توكيد على هذا الانتظار. ويعتبرها فان ديك عناصر معرفية، وتمثيلات عن العالم الذي يسمح لنا بإنجاز أفعال معرفية أساسية من مثل التبصرات والإدراك اللساني والأفعال. وتعد من بين الأنظمة التصورية التي تسهم في تنظيم المعرفة، فهي عناصر معرفية منظمة تخص مفهوما ما، لا سيما المعلومات الضرورية والنموذجية والممكنة المرتبطة بهذا المفهوم، وهي ذات طابع تواضعي، تساهم في توجيه سلوكنا بالنظر إلى العالم من جهة، وتساهم أيضا في تأويل سلوك الآخرين .

على هذا النحو، يحدد الإطار "مقهى" مجموعة من الوحدات الدلالية والمفاهيم التي تدل على مسارات أحداث أو أفعال معينة تخص أشخاصا أو أحداثا، وتحدَّد وفقها العلاقات المبدئية بين الوقائع. وبالتالي قد يتضمن الإطار "مقهى" مفهوم المكان الذي يلج إليه الأشخاص بغية تناول مشروب ما، ويقصي هذا الإطار السيناريوهات المتعلقة بمجريات الأحداث الخاصة بالإطار "دكان الحلاقة" على سبيل المثال. بهذا المعنى، يعتبر السيناريو "نصا كائنا بالقوة أو حكاية مكثفة" ، ويعد النص جماعا لسيناريوهات متعددة، تُفعل من قبل القارئ، بدءا من المفردة الواحدة، ومرورا بالجمل، حتى نصل إلى النص. ويرتهن "الفهم النصي الكامل.. بصورة كاملة إلى تطبيق السيناريوهات الملائمة" وإقصاء السيناريوهات المغلوطة أو الخاطئة.

من هنا، تعد الكفاية الموسوعية للقارئ، بتعدد مستوياتها، معبرا أساسيا للانتقال من التوضيح الدلالي المرتبط بالمستوى الدلالي الأولي للنص، إلى التوقع وبناء فرضيات نصية؛ أي بناء العوالم الممكنة في النص .

2. العوالم الممكنة

اعتبر ايكو أن مفهوم العوالم الممكنة مدخل أساسي لكي يصح الكلام عن توقعات القارئ وفرضيات قراءته للنص، إذ ينطلق القارئ في بنائه لتوقعاته من كفايته الموسوعية التي تضطلع بعملية التوضيح الدلالي، حيث يسقط أطره frames على الأعجومات والتراكيب لفهم النص، لينتقل، خلال تنامي عملية القراءة إلى التقدم بفرضيات حول ما هو ممكن عبر بناء مجموعة من المرجعيات الممكنة التي قد تتطابق مع إمكانات النص. وبالتالي تتآلف الكفاية الموسوعية للقارئ مع الأبنية النصية لتحديد النشاط النصي المحتمل، أي تحديد العوالم الممكنة التي تتعلق بـ"تصورات المتلقي وتجاربه ورؤاه ومعتقداته وطريقة بنائه للعوالم السيميائية التي تطرحها النصوص" . لذلك، يختلف بناؤها وتحديدها باختلاف الموسوعة الثقافية للمتلقي ومعرفته بالعالم، فضلا عن كفايته التناصية واشتغاله الاستدلالي خلال عملية القراءة باعتبارها عملية تفعيلٍ لدلالات النص وملء لفراغاته.

وينبغي التمييز، في هذا الإطار، بين مفهوم العوالم الممكنة الموظف في منطق الموجهات modal، وبين توظيف هذا المفهوم في السيميائيات النصية. فمنطق الموجهات يعد "امتدادا لمنطق القضايا مع إدراج مواقف المتكلم منها، ولا يُعنى منطق الموجهات، على هذا الأساس، بثنائية الصدق والكذب المرتبطة بمنطق القضايا، بل يتجاوزها ليهتم بالإمكانات المنطقية التي تستوجبها القضايا، أي الضرورة والإمكان والاستحالة" ، وينظر إلى العوالم الممكنة بوصفها "بناء مجردا للنظرية الدلالية الصورية" ، وهي عبارة "عن (وضعيات) ترد فيها مجموعة من القضايا" ، وبهذا المعنى، يمكن اعتبار "القضية مجموعة من العوالم الممكنة" . ولا يعد عالمنا الواقعي Actual إلا عنصرا من مجموعة العوالم الممكنة، إذ يتيح مفهوم "الإمكان" تعدد هذه العوالم واختلاف قوانينها ومسلماتها، وعدم مطابقتها بالضرورة للعالم الواقعي (عالمنا)؛ إذ كشفت نظرية العوالم الممكنة عن قصور الدلالة

الماصدقيةextension ، التي تنبني على مبدأ مطابقة الواقع الفعلي، وبينت أن العالم الواقعي ليس إلا عالما ممكنا ضمن مجموعة العوالم الممكنة، فلم يعد العالم الواقعي مكانا متميزا للأنطولوجيا، بل أصبحت شروط الصدق ترتبط أساسا بالعوالم الممكنة .

في مقابل ذلك، لا تعتبر السيميائيات النصية العوالم الممكنة عوالم مجردة فارغة، بل تنظر إليها بوصفها عوالم فردية مؤثثة منطوية على "عوالم (حاملة) يستوجب علينا أن نتعرف إلى الأفراد المتواجدين فيها، والخصائص التي تتميز بها". لكنها (السيميائيات النصية)، رغم ذلك، تشترك مع المنطق في كونهما يعتبران أن القضايا– Propositions موضوع الدراسة- تحيل على وقائع أو سلسلة من الوقائع facts في عوالم ممكنة، وقد ترد فيها هذه القضايا بوصفها قضايا ضرورية أو قضايا ممكنة أو قضايا مستحيلة، وتستفاد هذه الاحتمالات المنطقية من خصائص العالم الممكن الذي تحيل عليه وترد فيه، ومجموع نماذجه، وأفراده وخاصياتهم. بناء على ذلك، تعد العوالم الممكنة، حسب تعبير امبرتو ايكو، "سياقا من الأحداث". وبما أن هذا السياق سياق ممكن، فينبغي إذ ذاك أن "يتعلق بمواقف قضوية تنمّ عن امرئ، لا يني يثبته السياق، ويعتقد به، ويحلم به، ويرغب فيه، ويرتئيه... إلخ. "

فضلا عن ذلك، تعد العوالم الممكنة أبنية ثقافية غير منفصلة عن العالم الواقعي وخصائصه، ففي كثير من الأحيان يترك النص فراغات مبثوثة يملؤها القارئ بسهولة لأن لها مرجعا في العالم الواقعي، فلا يسترسل في سرد خصائص الجو الحار أو خصائص الإنسان أو الحيوان على سبيل المثال، فلكل من هذه الأفراد خصائص جوهرية يتعرف إليها القارئ بفضل كفايته الموسوعية ومعرفته بالعالم. لكن النص، كلما اقتضى الأمر، يقوم بإرشاد القارئ إلى مختلف التغييرات والتصحيحات التي عليه أن ينهجها خلال فعل القراءة، كما هو الحال بالنسبة لقصص الحيوان التي تُعْلِم القارئ أو

ترشده إلى خصائص العوالم الممكنة الجديدة. وبذلك، يتراكب العالم الممكن مع العالم الواقعي لأسباب عملية تتمثل أساسا في مبدأ الاقتصاد، إذ لا يمكن للنص أن يبدد طاقته في بناء العوالم الممكنة خاصيةً خاصيةً، لذلك يستعير العالم النصي "أفراده وخاصياتهم من العالم الواقعي ذي المرجعية" ، ويمكننا إذ ذاك إدراك عوالم أخرى انطلاقا من عالمنا.

من أجل هذا، يمكن أن ننظر إلى العوالم الممكنة من زاويتين؛ زاوية المؤلف الذي ينطلق من ثقافة معينة، ومعرفة بالعالم ورؤية ما، ينتهج في ضوئها استراتيجية نصية، ويبني على أساسها عوالمه النصية الممكنة التي تحد من سياقات الأحداث المحتملة التي يؤسس عليها القارئ عوالم ممكنة، وبالتالي تأويلاته. ثم زاوية القارئ الذي يوظف كفاياته للكشف عن هذه العوالم، ويأتي لتفعيل النص محمّلا بثقافة ومرجعية معرفية ورؤية للعالم، تساعده على توليد الدلالات الممكنة إثر تفاعله مع النص بطريقة تعاضدية.

3. النماذج الذهنية

رأينا، في الفقرة السابقة، بصفة مقتضبة، أن العوالم الممكنة مفهوم مستورد من حقل المنطق الذي ينظر إلى الدلالة بوصفها مشروطة بالصدق، لكنه صدق افتراضي يخالف الصدق القطعي المنبني على مطابقة الواقع؛ إذ يمكّن هذا المفهوم القارئَ من تأويل النص بناء على كفايته اللسانية وكفايته التناصية وكفايته الموسوعية، ويتيح له افتراض سياقات ممكنة للأحداث، أي بناء عوالم ممكنة لها خصائص قد تطابق الواقع وقد تخالفه، وتمده بالوسائل الكفيلة بملء فراغات النص، والانتقال من المعنى الصريح إلى المعاني الضمنية من خلال اتباع سيرورة تأويلية تآلف بين هذه العوالم بكيفية منسجمة.

في مقابل هذا المفهوم المنطقي الذي توظفه السيميائيات النصية في تأويل النصوص، توظف الدراسة النقدية للخطاب مفهوما مستمدا من علم النفس المعرفي cognitive psychology، يتمثل في النماذج الذهنية. وهو مفهوم وظفه فان ديك في نظريته حول معالجة الخطابDiscourse processing ، ويشير إلى البناءات الذهنية التي تضطلع بدور أساسي في فهم النصوص، والنموذج الذهني "تمثيل معرفي جزئي وذاتي لبعض مظاهر العالم" ، وهو "بناء في الذاكرة الحدثية episodic التي تمثل حدثا أو وضعية يتحدث عنها النص" . فضلا عن ذلك، تساهم النماذج الذهنية في "تمثيل وضعيات حقيقية أو محتملة أو متخيلة في الخطاب. "

بناء على ذلك، يوظَّف هذا المفهوم لتأويل النصوص، ليس انطلاقا من الواقع، لكن انطلاقا من التمثيل الذاتي لجزء من الواقع في ذهن القارئ. وبهذا، يعد فهم النص مرتبطا بنموذج في ذهن القارئ حول حدث أو وضعية يحيل عليها النص. لذلك، تستدعي عملية الفهم إما تحيين updatingنموذج قديم قد سبق تفعيله، وإما بناء نموذج ذاتي جديد يستدعي بدوره القيام بمجموعة من الاستدلالات، وبناء تعالقات مع مكونات لنماذج أخرى؛ من قبيل التجارب السابقة. وبالتالي، يعتبر النموذج المخصَّص لنص ما، شخصيا، وملائماad hoc ، وفريدا، ويحدد تأويلا مخصوصا لنص معين في لحظة معينة .

وإذا كانت السيميائيات النصية قد أدمجت مفهوم النماذج من خلال الإفادة من علم الدلالة الصوري، وذلك بتوظيفها لمفهوم العوالم الممكنة؛ إذ تتكون من مجموعات من النماذج وأفرادها وخاصياتهم، والتي تعد ضرورية لبناء هذه العوالم وتأويلها. فإنها قد تفيد أيضا من مفهوم النماذج الذهنية الموظفة في دراسة الخطاب، والذي استقته من علم النفس المعرفي؛ ذلك أن النماذج الذهنية تعد الخيط الرابط بين النص والمعلومات العامة المشتركة المتمثلة في المعرفة؛ إذ

"تُفعَّل هذه النماذج لتوليد الفرضيات، وحل المشاكل، وتحويل المعرفة إلى مجالات جديدة، وبذلك تُآلف النماذج الذهنية بين المعارف المخزنة والتجربة الآنية" . لذلك تعد النماذج الذهنية معلومات مجردة تُخزِّن السمات الفضائية والمادية والتصورية لهذه التجارب، والتي يمكن استدعاؤها للقيام باستدلالات، واتخاذ قرارات ونهج سلوكات معينة .

بناء على ذلك، تُفعَّل النماذج الذهنية في تأويل النصوص، إذ تُوظَّف المعرفة القبلية المخزنة في الذاكرة في نماذج ذهنية حول حدث أو نشاط أو وضعية أو شخص في التعرف على خصائص هذه المكونات، فضلا عن استنتاج معلومات جديدة بناء على التجارب السابقة. وتساعد، في ضوء ذلك، على التعامل مع الوضعيات التي يثيرها النص من خلال افتراض إمكانات غير ظاهرة أو غير متاحة. لذلك، تسهم النماذج الذهنية، في عملية الفهم من جهة، وفي عملية التأويل من جهة أخرى، عبر استثمار المعرفة القبلية والتجربة الشخصية لبناء دلالات جديدة. وبالتالي، يبني مستعملو اللغة نماذجهم الذهنية الخاصة التي تجمع بين تجاربهم الشخصية (أي نماذجهم الذهنية المخزنة في ذاكرتهم الأوطوبيوغرافية) وبين الوضعيات التي يثيرها النص. من أجل هذا، يمكن أن نحصل على تأويلات متعددة ومختلفة لنفس النص .

وبما أن النماذج الذهنية تمثيلات دلالية للوضعيات التي يثيرها النص، فإن هذه التمثيلات الدلالية تتيح للقارئ الانتقال من المعاني الصريحة إلى المعاني الضمنية، وذلك بالنظر إلى أن النص، حسب فان ديك، يشبه جبل الثلج؛ فأغلب معانيه ضمنية وغير متاحة. وتعد هذه المعاني الضمنية جزءا من النماذج الذهنية لمستخدمي اللغة، لكنها غير مصرح بها في النص، فهي مفترضة من لدن الكاتب ليتم الاستدلال عليها بناء على المعاني الجلية في النص من جهة، وتأسيسا على المعرفة السوسيوثقافية والشخصية للقارئ من جهة أخرى. من هذا المنطلق، تعد هذه الاستدلالات ضرورية

لبناء الانسجام الكلي للنص، وتأسيس احتمالات وافتراضات لما سيلي في النص من خلال التفاعل معه.

رابعا: تركيب

انطلقنا في هذه الورقة من إشكالية جوهرية تتمثل في: ما هي الآليات التي بفضلها يبني القارئ العوالم الممكنة التي توجه فعل القراءة ؟ وهل تمثل العوالم الممكنة استراتيجية تأويلية كافية لبلورة كون دلالي منسجم للنص؟ وكيف يستثمر القارئ معرفته لتأويل النص؟ وكيف يمكن الإفادة من مفهوم النماذج الذهنية في حقل التأويل؟

من أجل ذلك، تطرقنا في هذه الورقة إلى أوجه الاشتراك ومظاهر الاختلاف الكائنة بين التأويل ودراسة الخطاب، وتوصلنا إلى أن كلا الحقلين يهتمان بالدور المركزي الذي يضطلع به القارئ في فهم الخطاب وتأويله. لذلك قدمنا تصور ايكو للقارئ النموذجي المعاضد الذي يستثمر التجليات النصية وكفاياته لمباشرة عملية التأويل.

من هذا المنطلق، بسطنا مفهوم الكفاية الموسوعية بوصفها آلية للتعامل مع المستوى الدلالي الأولي للنص، فعند مباشرة القارئ لفعل القراءة، يقوم بتفعيل البنى الخطابية، إذ يربط بين التجلي الخطي للنص بنسق القواعد اللغوية للغة التي كتب بها النص من جهة، ويربطها أيضا بالكفاية الموسوعية التي تحيل عليها هذه اللغة من جهة أخرى.

فضلا عن ذلك، تطرقنا إلى آلية العوالم الممكنة بوصفها مدخلا لتأويل النص؛ إذ ينتقل القارئ من خلالها من المعاني الأولية التي تحفل بها التجليات النصية لملء فراغات النص من جهة، وللولوج إلى المعاني الضمنية من جهة أخرى، حيث يستثمر القارئ كفايته الموسوعية ومعرفته بالعالم لبناء كون دلالي منسجم، ويُعمِل طاقته الاستدلالية لتحديد النشاط النصي المحتمل. ويأتي القارئ،

في مباشرته لفعل القراءة حاملا لنماذج ذهنية يسقطها على النص، ويُحيِّنها انطلاقا من الوضعيات التي يثيرها.

وتجدر الإشارة، في هذا الإطار، إلى أن آليتي تفعيل العوالم الممكنة والنماذج الذهنية يرتبطان بالمعرفة القبلية عند القارئ، إلا أن العوالم الممكنة يتم بناؤها انطلاقا من التجليات النصية، ويقوم القارئ بملئها اعتمادا على معرفته بالعالم الواقعي، في حين، تُستدعى النماذج الذهنية المؤسسة سلفا في ذهن القارئ بالنظر إلى الوضعيات التي يثيرها النص لتُربَط بتجربته الشخصية ومعرفته بالعالم من خلال تحيينها أو بناء نماذج جديدة تستثمر النماذج القبلية.

إن إدماج مفهوم النماذج الذهنية في حقل التأويل يحتاج إلى مزيد تمحيص ودراسة وبحث، وتعد هذه الورقة محاولة مبدئية لتناول هذا المفهوم في علاقته بالعوالم الممكنة، من خلال استثمار نتائج الأبحاث التي تعنى بدراسة الخطاب.

لائحة المراجع :

1. ايكو امبرتو(1985): القارئ في الحكاية التعاضد التأويلي في تأويل الحكاية، ترجمة أنطوان أبو زيد، المركز الثقافي العربي، 1996.

2. بريمي عبد الله(2010): السيرورة التأويلية في هرمينوسيا هانس جورج غادامير وبول ريكور، دائرة الثقافة والإعلام، حكومة الشارقة.

3. ريكور بول(1986): من النص إلى الفعل، ترجمة: محمد برادة وحسان بورقية، عين للدراسات والبحوث الانسانية والاجتماعية، ط 1، 2001.

4. العلوي مولاي مروان(2017): الشرطيات في لسانيات الخطاب دراسة في ضوء المنطق والدلالة الصورية، دار نور للنشر، ألمانيا.

5. العلوي مولاي مروان: الترابط الدلالي في لسانيات الخطاب تصور تون فان ديك نموذجا، مجلة العمدة في اللسانيات وتحليل الخطاب، ع2، 2017.

6. الفهري عبد القادر الفاسي(1985(: اللسانيات واللغة العربية، دار توبقال، الدار البيضاء، الطبعة الأولى.

7. الميلودي الحاجي:تشكّل المعنى بين دلالات النّص وتأويل القارئى عند "إمبرتو إيكو" ، مجلة جيل الدراسات الأدبية والفكرية، ع33.

8. Barthes Roland(1973): Plaisir du texte, Seuil, Paris.
9. Greimas A.J.(1970): Du sens, Edition Seuil, Paris.
10. http://www.languageinconflict.org/how-language-is-studied/critical-discourse-analysis.html, vu le 01/03/2018.
11. Maggie Addison(2013): Mental models in discourse production: A typical discourse and the role of event models in the narratives of depressed patients, A thesis submitted for the degree of Master of Arts, Carleton University.
12. Martins Daniel(1998): Le Bouédic Brigitte : La production d'inférences lors de la compréhension de textes chez les adultes : une analyse de la littérature. In : L'année psychologique, vol. 98, n 3, pp 511-543.
13. Philip N. Johnson-Laird(2001): Mental models and deduction, IN Cognitive Sciences, Vol.5, No.10.
14. Rapp N. David(2005): MENTAL MODELS: THEORETICAL ISSUES FOR VISUALIZATIONS IN

SCIENCE EDUCATION, University of Minnesota, IN John K. Gilbert (ed.), Visualization in Science Education ,pp 43-60, Springer, Netherlands.

15. Van Dick A.Teun(1977): Text and Context explorations in semantics and pragmatics of discouse.
16. Van Dick A.Teun(1995): On Macrostructures, Mental Models, and Other Inventions: A Brief Personal History of the Kintsch—van Dijk Theory, In Discourse comprehension. Essays in honor of Walter Kintsch. (pp. 383-410). Hillsdale, NJ: Erlbaum.
17. Van Dick A.Teun(2008):Discourse and Power, palgrave macmillan, New-York.
18. Van Dick A.Teun(2011): Discours studies and Hermeunitics, IN Discourse studies, 1-13, sagepub.
19. Van Dick A.Teun(1977): CONTEXT AND COGNITION: KNOWLEDGE FRAMES AND SPEECH ACT COMPREHENSION, IN Journal of Pragmatics 1(3):211-231.